

الدراسات الشعبية الجزائرية في المرحلة الاستعمارية

Algerian folk studies in the colonial period

د. نصيرة ريلي*

جامعة عبد الرحمن ميرة بجاية (الجزائر)، rili.nacera@hotmail.fr

تاريخ النشر: 2023-12-31

تاريخ القبول: 2023-12-27

تاريخ الاستلام: 2022-06-21

ملخص:

سأحاول من خلال هذه الورقة البحثية استعراض ما أنجز من دراسات في مجال الاهتمام بالتراث الشعبي، بداية من العهد التركي من خلال كتابات بعض الجزائريين ومذكرات الرحالة والقناصل والمسافرين الأوربيين، لتليها إسهامات رجال الجيش، والأساتذة الجامعيين الفرنسيين الذين درسوا المجتمع الجزائري، من حيث ثقافته وعاداته ومعتقداته وأعرافه، وكل أشكاله التعبيرية الشعبية، لغرض استغلالها واستثمارها في التحضير لاستراتيجية استعمارية تتماشى مع أنماط تفكيره، وبالتالي تحقيق أهدافها الاستعمارية، وتسهيل عملية الاستيطان، لنعرج بعد ذلك على دراسة إسهامات النخبة الجزائرية المثقفة في المدارس الفرنسية، في تدوين ودراسة التراث الشعبي المتداول في عهدهم.

الكلمات المفتاحية: استعمارية؛ تراث شعبي؛ حكم تركي؛ محمد بن شنب؛ بوليفة.

Abstract:

Through this research paper, I will try to review the studies that have been made in the field of interest in folklore, starting with the Turkish period, through the writings of some Algerians and the memoirs of European travelers and consuls, followed by contributions from soldiers and French university professors in order to study the Algerian society, its culture customs, beliefs and all its forms aim of exploiting it and investing it in the preparation of a colonial strategy in accordance with its model thinking, achieving its colonial objectives and making easier the process of colonization.

Keywords: colonialism; Folklore; Turkish domination; Muhammad bin Shanab; Boulifa.

1. مقدمة:

نقصد بالتراث الشعبي مجمل العادات والتقاليد والمعتقدات الاجتماعية الشائعة في أمة من الأمم، إلى جانب تراثها الشفوي، فهو مصطلح جامع لـ«كل المعارف الشعبية التي تنتقل إلى الأجيال عبر التواتر الشفاهي، وكلّ الصناعات أو المشغولات التقليدية، بالإضافة إلى التقنيات التي يتم تعلّمها وإتقانها عن طريق التقليد ومحاكاة النموذج» (مصطفى و مرفت العشماوي، 2008، صفحة 31)، وهو مكوّن أساسي لحضارة وهوية شعب من الشعوب.

يعتبر العهد العثماني من أخصب الفترات التي تمّ فيها الاهتمام بالتراث الشعبي الجزائري، إلى جانب الفرنسيين الذين بذلوا جهودا جبارة في هذا الميدان، منذ أن وطأت أقدامهم الجزائر، ويمكن تقسيم هذه الدراسات إلى قسمين أساسيين هما: المساهمة الفرنسية والمساهمة الجزائرية.

2. الدراسات الشعبية في نهاية الحكم التركي:

بدأ الاهتمام بالتراث الشعبي الجزائري في نهاية الحكم التركي، من خلال كتاب (كشف الرموز) الذي هو في الحقيقة الجزء الرابع من مؤلف كبير لعبد الرزاق بن حمادوش (1107-1200) في الطبّ الذي سماه (الجوهر المكنون من بحر القانون)، هذا الكتاب الضخم الذي ضم أسماء الأمراض والأدوية الشائعة والمعروفة في عهده في الجزائر، مع إيراد ما يقابلها في بعض اللهجات المحلية العربية، واللغات الأجنبية الأخرى، ولشدة إعجاب كلّ من لوسيانليكليرك (Lucien Leclerc) وكبيرال كولان (Gabriel colin) بهذا الكتاب، قاما بترجمته ونشره باللغة الفرنسية، وقد عدّ ليكليرك كتاب كشف الرموز «قاموسا طبيا على طريقة المعاجم الأبجدية وضمنه مدخل في أنواع وأوصاف الأدوية، أسماء النباتات والعقاقير والحيوانات، والمعادن، صنّع فيه الأدوية والأمراض التي يعالجها، إضافة إلى مختلف المعادن والعقاقير والنباتات والمصطلحات الخاصة بها عند السوريين، والمصريين واليونانيين والهنود، وصل عددها إلى 987 مادة في مختلف الأنواع المذكورة من الأعشاب والمعادن وأعضاء الحيوان، ويشمل على جميع الأدوية المعروفة في الجزائر في وقته، وذكر خصائصه وفوائده العامة وفوائده الخاصة، كيفية استعماله والكمية الضرورية منه ومشتقاته، الأمراض التي يستعمل لها الدواء، يحدد منافع كلّ نبات (إنّ كذا صالح لوجع كذا)، يذكر مقادير كلّ دواء بالموازين الشائعة عندئذ» (وافية نفطي، 2019، الصفحات 20-53)، ويزكي هذا الرأي الباحث أبو القاسم سعد الله في قوله: «ولعلّ مصدر الإعجاب بـ(كشف الرموز) يعود إلى كون ابن حمادوش قد سار فيه على طريقة واضحة، فبعد المدخل أي النقل عن ابن سينا، والترتيب الأبجديّ، يأخذ في تعريف الدّواء ووصفه وأنواع الأسماء الأخرى التي تطلق عليه في مختلف البقاع، وذكر خصائصه وفوائده العامّة وفوائد الخاصّة، وكيفية استعماله والكميّة الضروريّة منه ومشتقاته، ومن جهة أخرى يذكر الأمراض التي يستعمل لها الدّواء ويتعرض لها الجسم، ويحدد منافع كلّ نبات أو غيره، فيقول أنّ كذا صالح لوجع كذا. وكان ابن حمادوش، يذكر عبر كلّ ذلك مقادير كلّ دواء بالموازين الشائعة عندئذ، ولعلّ ذلك هو ما حبّب الكتاب إلى النّاس أيضا» (أبو القاسم سعد الله، 2007، صفحة 434).

وعقب احتلال فرنسا للجزائر، ألف حمدان بن عثمان خوجة سنة 1833 كتابه المرآة باللغة العربية الذي ترجم إلى اللغة الفرنسية بعنوان: Aperçu historique et statistique sur la régence d'Alger (لمحة

تاريخية وإحصائية حول إيالة الجزائر)، ضاع الكتاب الأصل المكتوب بالعربية، وبقي الكتاب المترجم بالفرنسية، وبعد الاستقلال أعيد ترجمته انطلاقاً من النسخة الفرنسية إلى اللغة العربية.

ينقسم الكتاب إلى جزأين: تناول الجزء الأول تاريخ الجزائر الثقافي والاجتماعي والسياسي، حيث شرع في الحديث عن التركيبة السكانية في الجزائر في العهد التركي ذكر عوائدهم وأخلاقهم، وطبائعهم، وطريقة عيشهم، ولباسهم، وطبيعتهم النفسية التي ترفض الذوبان في الآخر الأجنبي، ثم تحدّث عن حكم الأتراك في الجزائر وأسباب انحطاطه وسقوطه.

أما الجزء الثاني فقد تحدّث فيه الباحث عن أسباب الغزو الفرنسي للجزائر، وقصة وصولهم ونزولهم بشاطئ سيدي فرج، ثم ذكر معلومات هامة حول الأوقاف والتغييرات التي تعرّضت لها تلك المؤسسات والمحاكم التي تنتظر في شؤونها أثناء ولاية الجنرال كلوزيل (Claussell)، ثم استرسل بعد ذلك في إعطاء تفسيرات حول ممتلكات الأوروبيين في الجزائر.

كما كتب عديد من الأوروبيين عن الجزائر منذ الوجود العثماني فيها، فكانت كتبهم بذلك «مادة خبرية عالية القيمة عن طبيعة الجزائر وعن مجتمعها وعاداته وتقاليده في الريف والمدينة» (عميراوي أحميدة، 2003، صفحة 4)، فقد زار الرحالة والطبيب ج. أ. هابنتسرايت (Johann Ernest Hebenstreit) الجزائر سنة 1732 بتكليف من الملك أغسطس الثاني ملك بولونيا، وصف له من خلال رسائله مشاهداته وانطباعاته عن الجزائر، عادات وتقاليدهم سكانها، وعلاقة الجزائريين بحكامهم الأتراك، وبعض مدنها وأهم الآثار التي شاهدها أثناء رحلته، ويسرد لنا حضوره رفقة القنصل الإنكليزي لتقديم التهاني للداي، حيث وجدوه في لباسه الرسمي، جالسا على جلد نمر في قاعة المجلس، يحيط به أعضاء الديوان، وهم يتنازلون وجبة الغذاء، يذهب الجميع للتفرج على مبارزة رسمية اعتاد الأتراك القيام بها، حيث يغطي المكان المخصص لذلك بالرمل، ويتقدّم المتصارعون واحدا بعد الآخر، والذي يطرح خصمه على ظهره يعتبر منتصرا، وهكذا دواليك حتّى يتم تعيين الفائزين بالجائزة، وتكون هذه المبارزات مصحوبة بأنغام موسيقى الانكشارية. ولا تُعدّ هذه المصارعة سوى واحدة من ألعاب كثيرة يقوم بها الجزائريون طيلة أيام العيد الثلاثة، غير أنّها لم تثر إعجاب هابنتسرايت لأنّها حسب رأيه ألعاب بسيطة لا تثير الانتباه (هابنتسرايت، صفحة 49).

وزار جان أندري بايسنال Peyssonnel الشرق الجزائري بتكليف من أكاديمية العلوم الفرنسية سني (1724-1725)، واستطاع أن يقدم لها معلومات مهمة عن الجزائر من الناحية الجغرافية والطبيعية والاجتماعية، إلى جانب ديبقو دوفراي هايدو (1527-1608) الذي كان أسيرا في الجزائر، وسمحت له مدة تواجده فيها، أن يكتب كتاب الطبوغرافيا والتاريخ العام للجزائر سنة 1608 باللغة الإسبانية، قدّم فيه وصفا دقيقا للعادات والتقاليد والأعياد والمناسبات واللغات واللباس المتداول في تلك الفترة في الجزائر.

أما الجغرافي نيكولاي Nicolay فقد زار الجزائر عام 1551 وكان من حاشية الملك هنري الثاني، حيث قدّم له وصفا دقيقا لمدينة الجزائر وبجاية وعنابة وهو في طريقه إلى اسطنبول، دون أن ننسى جهود الدكتور شو Shaw الذي عمل كاهنا «بالوكالة الإنكليزية في الجزائر من عام 1720 إلى 1732، إذ استطاع شو أن يقدّم عملا نادرا بعنوان: جولات في ولايات متعددة ببلاد القبائل والشرق في جزئين [جزأين] تضمننا أوصافا عن بلاد الجزائر وخاصة ريفها ومنتجاتها وآدابها العربية، مثلما تضمن قليلا من المعلومات عن الحياة السياسية

والإدارية» (عميراوي أميدة، 2003، صفحة 10)، فقد خَلَف هؤلاء جميعا وراءهم أدبا ضخما يستفاد منه في التعرف على الأماكن والعادات والتقاليد المتداولة في الجزائر في تلك الآونة.

فالاهتمام بالجزائر أرضا وتاريخا وسكانا وثقافة تمّ قبل الدّخول الفرنسي للجزائر، مثلما يؤكد لنا الباحث ناصر الدين سعيدوني في قوله: «إنّ المادة التاريخية التي استعملها الفرنسيون لم تكن تتجاوز في أغلب الأحيان المصادر الغربية والأرشيفات الأوربية التي تتألف أغلبها من مذكرات الرّحالة ومراسلات القناصل، وحكايات المسافرين، وتقارير البحّارة، وانطباعات الرهبان والجواسيس» (سعيدوني، 2009، صفحة 15)، لإحكام سيطرتهم على الجزائر وناسها.

3. الدراسات الشعبية في المرحلة الاستعمارية:

1.3. جهود الضباط العسكريين:

وبعد احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830 كان لا بدّ على المستعمر الفرنسي تجميع المعلومات حول سكان الجزائر، ومعرفة عاداتهم وأعرافهم وتمثلاتهم الذهنية، وخاصة عبر تراثهم اللامادي ليتمكنوا من السيطرة عليه. تعود بدايات الاهتمام بمواد التراث الشعبي الجزائري إلى بداية الاحتلال الفرنسي للبلاد، أي إلى الربع الثاني من القرن التاسع عشر، إذ بذل المستعمر الفرنسي جهودا معتبرة من أجل جمع التراث المادي واللامادي الجزائري، بغية إعطاء صورة لبلدانهم عن البلاد التي استعمروها، وتدرج هذه الخطة ضمن سياسة اعرف الناس لكي تستطيع التأثير فيهم فقد «كان لا بدّ للغازي من أن يعمل على استكشاف الخصم، ومعرفة من يقاتل، معرفة تخدم إستراتيجيته العسكرية، عند ذاك بدأت تظهر الدراسات التي تتناول الحياة الشعبية. وقد قام بها في بداية الأمر ولفترة طويلة الضباط العسكريون، واستمرت هذه الدراسات مواكبة لمختلف مراحل الاستعمار، تعكس سياسته، وتتخذ الإدارة الفرنسية في الجزائر من نتائجها سلاحا يساعدها في توجيه السكان للتكيف مع نظمها، فكانت بذلك الثقافة الشعبية هي الرصيد المعتمد في استكشاف العلمي للمجتمع الجزائري، فوظفت نتائج بحثها في خدمة الاحتلال منذ البداية، وقام ضباط عسكريون بتسجيلها من أفواه أهلها وتحليلها ودراستها عن طريق أكثر المناهج استجابة للغرض النفعي المقصود من طرف الإدارة الاستعمارية، وهو إحكام السيطرة على الأهالي وتوجيههم نحو أغراض الاحتلال» (بورايو، 1986، صفحة 29). ومن البحوث المنجزة من قبل العسكريين المبشرين في تلك الآونة مذكرات وولف (Woolf) عن احتلال مدينة قسنطينة، وما كتبه ضابط الشرطة دوبيينوسك (Louis Philibert D'Aubignosc) 1847-1774 حول مدينة الجزائر 1831، وصف فيها حياة سكانها عاداتهم وتقاليدهم وطريقة عيشهم بغية تسهيل السيطرة عليهم، إلى جانب ليون روش (Léon Roche) من خلال كتابه (اثنان وثلاثون سنة عبر الإسلام) 1864-1832.

واهتمت بعض البحوث بدراسة الاختلافات الموجودة بين سكان الجزائر من حيث اللغة والعادات والتقاليد، فقسمتهم إلى قسمين: هما العرب والبربر، إلى جانب اهتمام الجنرال هانوتو (Hanoteau) - وهو عسكري فرنسي يُنقن اللغة العربية والقبائلية، عُيّن سنة 1860 قائدا لفرقة عسكرية في منطقة الأريعاء ناث إيراثن، وفي عام 1862 عُيّن مديرا للشؤون العربية في الجزائر العاصمة - بتقديم «دراسته الوافية حول القبائلية 1858 والتارقية 1860 (...)»، كما ظهرت أوصاف عديدة للهجات المحليّة الأمازيغية، وشُجعت ونُشرت تحت رعاية السلطات

العسكرية بالقيادة الجزائرية العامة، وكان من بين كبار الضباط المستمزين، فضلا عن هانوتو كل من Biarnay و Renisio و Loubignac و Jordan» (أحمد بوكوس، 2013، الصفحات 186-187)، وقد كانت لمثل هذه الدراسات دور مهم في ترسيخ الدعاية الإستعمارية التي ترى أن الشعب الجزائري ليس شعبا واحدا، بل مجموعة من القبائل تتحدث لهجات مختلفة، متباينة في ثقافتها وعاداتها محاولين من وراء ذلك إثارة الفتنة بين سكانها وتكريس عوامل التفرقة بينهم .

وقد كتب هانوطو أيضاً كتاب أشعار شعبية من قبائل جرجرة 1867، الذي تضمن مجموعة كبيرة من الأشعار القبائلية، وصل عددها إلى 53 قصيدة، وهو عدد قليل إذا ما قورن بغزارة الإنتاج الشعري المتداول في تلك الآونة في منطقة القبائل، وقد اختلفت هذه قصائد المجموعة من حيث الطول والقصر، أطولها يبلغ 60 بيتا، وأصغرها 10 أبيات، وكما اختلفت هذه القصائد من حيث الحجم اختلفت أيضا من حيث البناء فمنها ثلاثية الأشر، وثنائية الأشر، ومنها ما يشبه النثر المسجوع، قيدها المؤلف بالحرف العربي والحرف اللاتيني ثم ترجمها إلى الفرنسية.

وعمل هانوطو كذلك في كتابه هذا على تقديم ثلاثة شخصيات مشهورة في تلك الفترة، ضمنها بالنقد والتعليق وهي: بوبغلة رجل المقاومة (445-150)، سي الجودي، باشا جرجرة (451-453)، والقايد التركي في برج سيباو (454-458)، وينتهي الكتاب بلمحة موجزة عن الموسيقى القبائلية (459-471) من تقديم سالفادور دانيال (SALVADOR DANIEL) أستاذ الموسيقى في المدرسة العربية بالجزائر العاصمة، ويمكن اعتبار هذا الكتاب وثيقة تاريخية تسمح للعسكر الفرنسيين الكشف عن طبيعة تفكير هذا المجتمع الذي تريد استعمارهم، وطريقة تفكيره، وطرق عيشه، ودينه وتراثه الفكري، حتى تتمكن من السيطرة عليه، وهذا ما أكدته هانوطو في قوله: «إن هذه الأشعار يمكنها أن تقدم لنا دروسا في غاية الأهمية، بالفعل فإنها تكشف لنا عن الحالة الذهنية والنفسية للأشخاص أثناء الحرب، خاصة في السنوات الأولى التي تلت فترة الغزو حين كان الشعب تحت وطأة الرعب من جرّاء الحروب التي خاضوها ضدنا، وعند مقارنة هذه الأشعار بالأشعار التي أنتجت في السنين التي تلت، يمكننا تسجيل فكرة دقيقة عن التحول الحاصل في نفسية الفرد القبائلي إزاءنا فيظل ما تحقق من سلم، وشمول عدل حكما» (أحمد جلاوي، 2001، صفحة 7).

وقد قام الباحث سي عمر بن سعيد بوليفة فيما بعد بنقد المعلومات الصادرة فيه، لأنه يرى أن هانوطو عندما تطرق إلى الشعر القبائلي «لم يكلّف نفسه التمييز بين الشعراء الجيّدين والشعراء الضّعاف، وأخذ مادته في الأغلب من هؤلاء الأخيرين، وخلط بين الرواة حملة الشعر والشعراء المبدعين، فتعامل مع الأولين من أمثال الضّاربيين على الطبل في الفرق الموسيقية ومنشدي المدائح على أنهم شعراء حقيقيين، وأخذ عنهم بعض الأشعار التي يروونها نسبهم إليهم، يقول (لم يلتق هانوطو للأسف إلا بشعراء مناسبات، مثلما هو الحال بالنسبة للطّابطة والمدّاحين، ممّن وجدوا أنفسهم شعراء بالقوة بسبب ظروفهم المعيشية)» (بورايو، الأدب الشعبي الجزائري، 2006، صفحة 25)، كما انتقد هانوطو في جملة من القضايا نذكر منها:

- وضعية المرأة القبائلية التي وصفها بأنها مضطهدة ومحترقة؛ فهي منبوذة وغير مرغوب فيها مند ولادتها، مقارنة بالذكر الذي تقام له الأفراح والولائم.

- القوانين العرفية السائدة في المجتمع القبائلي التي حرمت المرأة من حق الميراث، متجاوزين بذلك تشريعات الدين الإسلامي.
- الأعراف والتقاليد التي يتم بها الزواج في هذا المجتمع القبائلي التقليدي (المهر، عقد الزواج الذي كان يتم بدون وثائق القاضي).

وكتاب هانوطو ولوتورنو (Hanoteau et Letourneux) حول العادات القبائلية والتنظيم السياسي والإداري لمنطقة القبائل الكبرى 1893، وفيه حاولا الكشف عن البنية السياسية للمجتمع القبائلي (التنظيم القبلي أي الأحزاب أو الأحلاف)، وكل قبيلة مسيرة من طرف ثاجماث، وتتشكل أساسا من الأمن، والضمان (T'emman)، ولهذه الهيئة الحق في تعيين وكيل المسجد، وإمام القرية، وجمع الضرائب والأداءات العينية.

ثم تطرقا إلى دراسة بعض عادات القبائل كعادة الضيافة، وتوزيع اللحم ثيمشرات، والتضامن العمومي، والحماية لعناية (L'anaia) وهي إحدى المقومات الفاعلة في المجتمع القبائلي، والحرب، والسوق، والتعليم العمومي،... إلخ، التي أعقبتها أطروحة كامبردونهاكون (Hacon Campredon) التي حلت الأعراف القبائلية (1921)، وكانت مجمل هذه الدراسات تعمل على تقديم أنجع السبل لرسم سياسة تضمن بقاء الاستعمار الفرنسي بالجزائر.

أما في مجال الأمثال الشعبية، فقد اهتم روني باسط (Ronnie Basset) بجمع الأمثال الشعبية في مقاطعة وهران والتي نشرها في المجلة الآسيوية سنة 1890، ونشر هنري باسط دراسة عن الأمثال في الهقار في مجلة الإفريقية سنة 1922، كما قام موظفو الحاكم العام، والضباط المكلفون بشؤون الأهالي كالإداري مارسيل ريموند (Ould-Braha & Ouahmi, 1989, pp. 58,84) (Martial Rémond) الذي كان يشتغل آنذاك موفقا في الحكومة العامة في الجزائر، والذي قدّم للمستشرق إيميل درمنغم (Emile Dermenghem) سنة 1953 مخطوطاً يضم مجموعة من الأمثال، والأغاني والأشعار قرية فورناسيونال المعروفة اليوم بـ (الأربعاء ناث إيراثن). ومخطوط الأمثال هذا، مكوّن من عدد كبير من الأوراق الأصلية لاستجابات أنجزها القائد أو رئيس الدوّار، بطلب من هذا الإداري الذي وجّه لهم منشوراً طالبهم فيه بإعداد بحوث حول المنطقة التابعة لسلطتهم، وفي الوقت نفسه جمع تراثها الشعبي من أشعار وأغانٍ وأمثال، وتضم قوائم هذا الملف خمس جهات وهي كالتالي:

1. دُوّار زوادية (إواضين).

2. دُوّار إراثن (آثيراثن).

3. دُوّار بني محمود (آث محمود، كنفيدرالية آث عيسى).

4. دُوّار بني خليلي (آث خليلي، منطقة عزازقة).

5. دُوّار أومالو.

ونجد كذلك جهود الباحث الفرنسي الإيطالي الأصل أنطون فياكوبيتي (Antoine Giacobetti) الذي ينتمي إلى المجتمع الديني للآباء البيض، والذي قام بجمع الأمثال والحكم القبائلية في الفترة الممتدة من 1869-1956.

بدأ فياكوبيتي رحلة بحثه في منطقة آث يني ما بين 1905-1907 حيث أقام هناك، ثم كُلف بعد ذلك بمهمات عدة، في مختلف أنحاء الجزائر (ورقلة، وغرداية، والأوراس، والهضاب العليا)، جمع الباحث الأمثال القبائلية إلى جانب أشكال أخرى من الثقافة الشعبية العربية، كالألغاز الشعبية، والزربية والنسيج لمنطقة جبل عمور، وهذا قبل أن يستأنف عمله مرة أخرى مع منطقة القبائل في حدود 1940، عندما دُعي لمنصب في منطقة خراطة، وقد أضاف الباحث لأمثال آث يني إسهامات أخرى من مناطق مختلفة من القبائل، كمنطقة إغيل علي ببجاية، ومنطقة القبائل عامة دون تحديد المناطق.

وإلى جانبه نجد باحثين آخرين عالجوا الأمثال الشعبية القبائلية مثل موريس كالان (P.Maurice Callen) وموريس منارد (Maurice Ménard) الذي أقام بمنطقة بونوح 1929، ثم إواضين ابتداءً من 1932 حيث استقر هناك ثلاث عشرة سنة.

والمتقضي لأغلب مواد التراث الشعبي المدروسة أو المترجمة من طرف المستعمر الفرنسي في تلك الفترة يدرك مدى تحيزه وعدم دقته وموضوعيته تجاه الأحكام التي أطلقها على مواد الثقافة الشعبية الجزائرية لأسباب عديدة، نذكر منها:

- . الاكتفاء بترجمة النصوص والتعليق عليها دون الاهتمام بالجانب الفني لهذه المرويات وبرواتها.
- . ضعف الثقة بين حملة التراث والجامعيين الفرنسيين.
- . افتقاد عملية الجمع الميداني إلى الأسس العلمية والمنهجية.
- . ازدراء واحتقار الجامعيين الفرنسيين لحملة التراث وشعورهم بالاستعلاء اتجاههم.

2.3. الباحثون الجامعيون:

انتقل البحث بعد ذلك من العسكريين إلى يد الباحثين الجامعيين، وقد اتسمت هذه الدراسات بطابع العفوية والسطحية إذ اكتفى أصحابها عند حدود ترجمة النصوص والتعليق عليها، ومن أشهر تلك الدراسات دراسة روني باسط (René Basset) عن قصة بنت الخص، وكتاب حكايات شعبية بربرية (*Les contes populaires berbères*) 1897 الذي جمع في طياته مجموعة من الحكايات الشعبية البربرية بعدما قام بترجمتها إلى الفرنسية والتعليق على مضامينها، ودراسة ألفريد بل (Alfred Bel) عن قصة الجازية.

وكتب جوزيف ديسبارمييه (Joseph Desparmet) عن المغازي مثل غزوة الخندق، ومعركة علي مع رأس الغول، وأغاني المآثر (1830-1914)، إلى جانب كتاب الفوايد في العوايد والقواعد والعقائد 1905، الذي جمع فيه مجموعة من عادات وأعراف منطقة البليدة.

وكذلك اهتم فروبينوس (Léo frobenius) بتدوين الحكايات الشعبية القبائلية باللغة الفرنسية (1873-1938)، وكذلك قام هودسون (w.hodgson) بترجمة حكايات القبائل إلى اللاتينية، كما قام القس ريفيير (Rivière) سنة 1882 بجمع الحكايات الشعبية بمنطقة قبائل جرجرة، واهتم بنشرها وبت ترجمتها إلى الفرنسية.

وفي سنة 1897 نشر الأب لوبلن بريبو (Le Blanc Prébois) مجموعة من الحكايات القبائلية بعدما ترجمها إلى الفرنسية، ولكن الفضل الكبير في هذا المجال يعود إلى أوجوستمولييراس (Auguste Mouliéras) الذي نشر في الفترة الممتدة بين 1893 و 1897 كتابين تحت عنوان خرافات وحكايات عجيبة من القبائل

الكبرى (Légende et Contes merveilleux de la grande Kabylie)، كما نُشرت العديد من الحكايات الشعبية الأمازيغية في ملف الوثائق البربرية (F.D.B) الذي كان القس دالي (LePère Dallet) مشرفاً عليه. وقد اهتم العسكر الفرنسيون أيضاً بجمع وتدوين ونشر الشعر الشعبي الجزائري، بعد ترجمته إلى الفرنسية في أعداد مختلفة من المجلة الإفريقية، باعتباره وثيقة مهمة تساعدهم في فهم طبيعة المجتمع المستعمر، ومن أشهر هذه القصائد قصيدة الشيخ عبد القادر الوهراني (ت1833م) الفرانصيص «التي يصف فيها حال الجزائر لحظة الاحتلال الفرنسي للجزائر، واستباحته لحرمة مزغنة وفرح اليهود ونسائهم بهذا الاحتلال، وتقاعس الأتراك في رد هذا العدوان على الجزائر، فالقصيدة آية من آيات الشعر الشعبي التي تتوافر على لغة رقيقة وصدق فني عال» (أحمد يوسف، 2002، صفحة 31)، نشرها ديسبرمو (Desperment) بعنوان قصيدة دخول الفرنسيين إلى الجزائر سنة 1930، ونشر ألكسندر جولي (Alexandre Jolly) ملاحظات على الشعر الحديث عند البدو الجزائريين في المجلة الإفريقية، وهي عبارة عن دراسة فنية للشعر الملحون في الجنوب، مناطق الحضنة، والأغواط، وتيارت، وبسكرة وعين الصفراء، وركز على بعض الكلمات الخاصة بأهل الجنوب في أنواع الشعر، كالقطاعة وهو شعر الحداء (أبو القاسم سعد الله، صفحة 316).

ونشر (Faure Biguet) قصيدة شعرية في المديح النبوي (العقيقة) للشاعر أبو عثمان سعيد بن عبد الله المنداسي، كما كتب قسطنطين لويس سونيك (Constantine Louis Sonnek) كتابه الديوان المغربي في أقوال عرب إفريقيا والمغرب سنة 1902، ضم فيه مجموعة من القصائد الشعرية بعضها لفظاحل الشعر الملحون، وبعضها الآخر ينتمي للشعر الجمعي مجهول المؤلف.

وهكذا يمكن القول أن بداية الاهتمام بموارد الثقافة الشعبية الجزائرية، كانت ولفترة طويلة من اهتمام العسكر والمبشرين ثم الجامعيين الفرنسيين، قصد التمكن من السيطرة على المستعمرين، وقد اتسمت بحوثهما بما يلي (بورايو، الأدب الشعبي الجزائري، 2006، صفحة 14):

البحث في الإثنولوجيا الأكاديمية	البحث في الإثنولوجيا الاستعمارية العسكرية
- أنجزه مختصون في البيداغوجيا: علاقتهم ملتبسة بالشعب. - أنتجه في الأغلب نخب تنتمي إلى الطبقة الوسطى. - اهتم بالطقوس والمعتقدات بما هو موروث. - اهتم بموضوعات عتيقة. - موجه في الواقع إلى الأهالي. - أنتج عددا قليلا من الأعمال. - وظيفته: التعرف من أجل التواطؤ.	- أنجزه عسكريون: علاقة استعلاء وانطباعية رومنطقية. - أنتجه دائما المستعمر. - اهتم بالمجالات الحيوية المتعلقة بالمجتمع المحتل (بنيات اجتماعية، طلاق دينية...)، تشتغل على موضوعات شاملة. - اهتم بالحاضر الساخن. - موجه إلى الغازي. - أنتج عددا كبيرا من الأعمال بعضه له قيمة معتبرة. - وظيفته: التعرف من أجل إحكام السيطرة.

ومن خلال هذا العرض التحليلي الموجز لأهم الدراسات الاستعمارية في مجال التراث الثقافي الجزائري إبان فترة الاحتلال يتبين لنا، أن للفرنسيين حظا وافرا في الاهتمام بالتراث الجزائري المكتوب في العهد العثماني تحقيقا وترجمة، إضافة إلى اهتمامهم بعادات الشعب وتقاليده، طريقة تفكيره وعيشه، أعرافه وتراثه خدمة لأهدافهم الاستعمارية، كما اهتموا بدراسة اللهجات الجزائرية المختلفة خاصة منها العربية والبربرية باعتبارها الوسيلة الأساسية التي تساعد على التواصل المباشر مع الأهالي وبالتالي استغناء على الوسطاء المشكوك فيهم من جهة، ومن جهة أخرى استغلالها في دعم فكرة فرق تسد بين أبناء الوطن الواحد لتمزيق الوحدة الشعبية والوطنية، إضافة إلى اهتمامه بالموروث الشعبي الشفوي مثل دراسة الشعر الشعبي والأمثال الشعبية لدوره الكبير في فهم طبيعة هذا المجتمع وتيسير مهمة التحكم فيه والسيطرة عليه.

ومجمل القول، إن البحث الاستعماري في مجال اللهجات البربرية والعربية، والتراث الشعبي قد أنتج أعمالا متنوعة متفاوتة من حيث الكمية والنوعية، وقد ساهمت هذه الأبحاث المختلفة بصرف النظر على الأهداف الاستعمارية في تدوين وتوثيق تراثنا الشعبي والتعريف به ونشره وحفظه من الضياع والاندثار.

3.3. جهود المثقفين الجزائريين:

والى هذه الفئات الثالثة، نضيف جهود بعض المثقفين من أبناء الأهالي الجزائريين الذين تخرجوا من المدرسة الفرنسية، لكنهم لو ينكروا انتمائهم الأصلي للوطن الأم الجزائر، وسعوا جاهدين للدفاع عن تراثهم بانتقاد سابقيهم من الباحثين الفرنسيين الذين أساءوا فهم هذه المواد الثقافية، فأطلقوا عليها أحكاما تنتقص من قيمتها، ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

1.3.3. الباحث عمار بوليفة (1865-1931): ولد في قرية عدني قرب الأربعاء ناث إيراثن في منطقة القبائل الكبرى، من أسرة مرابطية، حفظ القرآن ودرس اللغة الفرنسية والعربية في المدرسة الابتدائية، اهتم بشكل أساسي بدراسة اللغة القبائلية، ألف عددا من الكتب بالفرنسية نذكر منها: دروس في اللغة القبائلية (1897)، منهج اللغة القبائلية (1903)، نصوص بربرية من الأطلس (1908)، جرجرة خلال التاريخ، مجموع أشعار قبائلية، كما اعتنى بجمع أشعار سي محند أومحمد (1845-1906) حيث «اكتفى بإثبات مائة وثماني قصائد، وجمع أكثر من مائة وأربع وستين أخرى مصنفا إياها تحت عنوان: (Ateurs divers) مشيرا أن بعضها قد يكون لسي محند أو لبعض مقلديه من الشباب» (بوحبيب حميد، 2007، صفحة 8).

2.3.3. محمد بن شنب (1869-1929): ويعد محمد بن شنب من الباحثين المهتمين بالتراث الشعبي الجزائري من خلال نشره كتاب الأمثال الشعبية الجزائرية والمغربية (Proverbes arabes de l'Algérie et du Maghreb)، وهو من الكتب الرائدة والسبّاقة في مضمار جمع وتصنيف الأمثال الشعبية الجزائرية، فقد جمع الباحث ما يقارب 3127 مادة مثلية وثّقها بلغتها الأصلية أي الدرجة الجزائرية، ثم ترجمها إلى اللغة الفرنسية، بعدما شرحها وعلّق عليها وقدم ما يُوازيها من أمثال في العالم العربي كمصر، وسوريا وبيزنطة، والجزيرة العربية، ومن مصادر التراث العربي كالقرآن والسنة النبوية، ومن المجاميع الشهيرة للأمثال العربية القديمة «كما كتب عن اللباس الشعبي وبعض التقاليد في المدينة العتيقة القصبة (الجزائر)» (بورايو، الأدب الشعبي الجزائري، 2006،

صفحة 25)، وقد جعل الباحث مصنفه على نظام حروف المعجم في أوائلها حتى يُسهل على القارئ تناولها والاطلاع عليها.

وقد حاول محمد بن شنب من خلال كتابه هذا الرد على ادّعاءات شربونو (Cherbonneau) الذي كان يرى أن أمثال العرب «ما هي سوى رصف لعبارات نمطية مكررة ومحفوظة على ظهر قلب يستدعيها الظرف ولا علاقة حقيقية لها بالمقام» (بورايو، الأدب الشعبي الجزائري، 2006، صفحة 26)، وترجم عديداً من القصائد أيضاً من العربية إلى الفرنسية، مثل قصيدة الشاعر ابن مساييب التلمساني، وهو أحد شعراء القرن الثامن عشر في الجزائر، وقد جاءت قصيدته في 120 بيتاً، وقصيدة الشيخ سيدي محمد بن إسماعيل التي مجّد فيها انتصارات الدولة العثمانية على روسيا القيصرية في حرب القرم سنة 1854، مثلما ترجم قصيدة أم هانئ الأنصارية في مدح الرسول (ص).

3.3.3. سعد الدين بن شنب (1907-1968): اعتنى بدراسة أشكال التعبير الشعبي المختلفة، حيث قام بنشر بعض الحكايات الشعبية المجموعة من العاصمة سنة 1949، كما كتب في التراث والمسرح والشعر والقصة.

4.3.3. رشيد بن شنب: كتب العديد من المقالات ضمن المجلة الإفريقية في الفترة الممتدة من (1942-1944) في المجال اللغوي والاجتماعي.

5.3.3. جان عمروش: ومن أهم أعماله ترجمة الأشعار والأغاني الأمازيغية التي حفظها عن أمّه مرجريت فاطمة آيت منصور إلى الفرنسية، وتقسيمها حسب موضوعاتها المختلفة.

6.3.3. مولود فرعون: اهتم مولود فرعون بجمع أشعار سي محند أو محند شاعر جبال جرجرة مكتفياً بنحو أربعين قصيدة متداولة وشائعة وترجمها إلى اللغة الفرنسية في كتاب ديوان الشعر القبائلي (Recueil de poésie kabyle) سنة 1960.

وقد خضعت كلّ هذه البحوث التي أعدها المثقفون الجزائريون من خريجي المدرسة الفرنسية إلى تقنيات البحث الأروبي، فاكتفوا بالجمع والتدوين والتعليق والملاحظة الوصفية الاثنوغرافية لموارد التراث الشعبي المحلي، مثلما يشير إلى ذلك الدكتور عبد الحميد بورايو حين قال: «هكذا إذن جمع هؤلاء الباحثون الرّواد جزءاً من مواد النّقافة الشعبية المتداولة في عهدهم، وحاولوا توثيقها والتعليق عليها، ولعلّ طبيعة علاقتهم بمنّجي هذه المادة جعلتهم يقترّبون منها أكثر، ويتمكّنون من فهمها بصفة قد لا تتوفّر بالنسبة لزملائهم وأساتذتهم من الفرنسيين، غير أن من الناحية المنهجية لم يتجاوزوا طرق البحث السابقة، ولم يستفيدوا من التّطورات المنهجية التي عرفت العلوم الاجتماعية في أوروبا في هذه الفترة، بحيث لم نعثر عندهم على تطبيقات نفسية أو أنثروبولوجية أو بنائية أو مورفولوجية على مواد النّقافة الشعبية المجموعة والمعلّق عليها من طرفهم، وهي طرق بحث كانت رائجة في النصف الأول من القرن العشرين» (بورايو، الأدب الشعبي الجزائري، 2006، صفحة 26)، ولكن هذا لا ينكر أو يقلل من أهمية أبحاثهم وقيمتها.

4. خاتمة:

أمّا الآن، وبعد أن أشرفنا على نهاية البحث واكتماله، حان الأوان لعرض أهم نتائجه وحقائقه، إذ توصلنا من خلال ما تمّ عرضه وإخضاعه للتحليل والنقد إلى استخلاص النتائج التالية:

- أ. يعتبر العهد العثماني من أخصب الفترات التي تمّ فيها الاهتمام بالتراث الشعبي الجزائري، بأقلام المؤرخين والرحالة الأوروبيين وبعض الجزائريين، وقد نالت عادات وتقاليد المجتمع الجزائري حظاً وافراً من الدراسة والتدوين، وخاصة من قبل الأوروبيين مقارنة بالدارسين العرب.
- ب. انتقل الاهتمام بالتراث الشعبي الجزائري إلى المستعمر الفرنسي بعد تعرّض البلاد للاحتلال، ويمكن تقسيم هذه الفترة إلى ثلاثة أقسام هي:
- فترة القادة العسكريين الذين عمدوا إلى التعرف على التراث الشعبي الجزائري، لحاجتهم إلى معرفة طبيعة الشعب المستعمر للتمكن من السيطرة عليه، وقد نشرت أغلب أعمال هؤلاء في النشريات الرسمية التي كانت تصدرها الإدارة الفرنسية.
 - الدراسات التي قدّمها أكاديميون جامعيون، وباحثون فرنسيون، والتي نُشرت في المجالات المختصة كالمجلة الإفريقية، وحوليات معهد الدراسات العربية... إلخ، وأغلب هذه الدراسات كانت تبتعد عن الموضوعية، وترتبط بخدمة الأغراض الاستعمارية رغم توفرها على مناهج وطرق علمية.
 - وأخيراً، جهود بعض الجزائريين الذين درسوا في مدارس فرنسية، والذين استخدموا التراث الشعبي المحلي كعامل توعية وإثبات الذات وخصوصية الأمة، إزاء المستعمر الغاشم الذي احتقر وقّلت من شأن كل ما هو نابع من الأوساط الشعبية.

-الاحالات والمراجع:

- أبو القاسم سعد الله. (2007). تاريخ الجزائر الثقافي (المجلد 1). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- أبو القاسم سعد الله. (بلا تاريخ). تاريخ الجزائر الثقافي (المجلد 8). بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- أحمد بوكوس. (2013). مسار اللغة الأمازيغية (رهانات والاستراتيجيات). (فؤاد ساعة، المترجمون) الرباط: المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.
- أحمد يوسف. (2002). يتم النص - الجينالوجية الضائعة (الإصدار 1). الجزائر: منشورات الاختلاف.
- أحمد جلاوي. (2001). أشعار شعبية من قبائل جرجرة - قراءة نقدية في كتاب هانوطو. الجزائر: دار زرياب.
- بوحبيب حميد. (2007). العجري الأخير - دراسة نقدية تحليلية لشعر سي محمد أومحمد. الجزائر: دار الحكمة.
- ج.أو هابنسترايت. (بلا تاريخ). رحلة العالم الألماني ج. أوهابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ - 1732م). (ناصر الدين سعيدوني، المترجمون) تونس: دار الغرب الإسلامي.
- عبد الحميد بورايو. (1986). القصص الشعبي في منطقة بسكرة (دراسة ميدانية). الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- عبد الحميد بورايو. (2006). الأدب الشعبي الجزائري. الجزائر: دار القصبة.
- عميرواي أحميدة. (2003). الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجاً). الجزائر: دار الهدى.
- فاروق أحمد مصطفى، و عثمان مرفت العشماوي. (2008). دراسات في التراث الشعبي (الإصدار 1). الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

ناصر الدين سعيدوني. (2009). *ورقات جزائرية (دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني)*. الجزائر: دار البصائر.

وافية نفطي. (2019). *مسألة علوم الطب والصيدلة عند علماء الجزائر خلال العهد العثماني*. مجلة آفاق فكرية، 7 (2).

Ould-Braha, & Ouahmi. (1989). *Locutions et Proverbes Kabyles d'après un recueil manuscrit de (1928– 1932)*. *E.D.B*(5).